

التقارب والتباعد بين الوطنيين التونسيين والوطنيين المصريين في تصوّر الهوية الوطنية المعاصرة (1945-1956)

مباركة حامد التواتي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
تونس

مقدمة

قد يرى البعض أن تاريخ الحركة الوطنية أصبح من الأمور المحسومة والثابتة لأن دراسته استوفت كل حلقاته، جملة وتفصيلا، وتمت إنارة كل ما حَفَ به من غموض وشواذب، وبانت معرفته جلية، لا تحرك فضول العامة من الجمهور العريض ولا تستهوي اهتمام الخاصة من المؤرخين والباحثين، بحيث تصبح إضافة المعرفة فيه من الشيء العسير.

لئن كان هذا الرأي فيه قدر من الصحة، فإن ذلك لا يثينا عن الحفر في بعض الإشكاليات الجديدة التي قد يرصدها المؤرخ، انطلاقا من اعتبار أن علم التاريخ يندرج ضمن تلك العمليات التي لا تستكين إلى المطلق ولا تؤمن بالثابت المتحجّر في اكتمال المعرفة التي يجب أن تكون قابلة للمراجعة والتحيين باستمرار، تماشيا مع العقل الذي يتوق دائما إلى الكمال دون إدراكه، ولعلّ في ذلك موطن ضعفه وقوته في ذات الحين وبالتالي فهو يخضع إلى حراك مستديم.

أما عن إشكالية المداخلة فإنها تبحث في أهمية التقارب والتباعد بين الوطنيين التونسيين والوطنيين المصريين، في تصوّرهم للهوية الوطنية

المعاصرة بين 1945 و1956، فإلى أي مدى مثلت العلاقات القائمة بين الطرفين محكا تدعّم في صلبه ذلك التصرّو ؟

هذه قضية من القضايا الحساسة التي تتعلّق بتاريخ تونس في علاقتها مع المحيط العربي إبان فترة تأسيسية لتاريخها المعاصر، هذا لا يخصّ تونس فحسب، وإنما أيضا باقي الجهات الأخرى التي نجدها في علاقة جدلية ببعضها البعض، متأثرة ومؤثرة. وقد يسمح ذلك بتقصّي تحولات تلك الحقبة، انطلاقا من رؤية شاملة تأخذ في اعتبارها كل الزوايا الدولية منها والإقليمية والمحلية.

وقد بوبنا هذا البحث إلى ثلاثة محاور : الأول يتطرق إلى النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية وتداعياته. المحور الثاني يمثل القضية التونسية في مطلع الخمسينات، أما المحور الثالث فيعالج الموقف المصري في خضم تناقضات الصف الوطني التونسي.

I - النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية وانعكاساته :

1) على المستوى الغربي :

مثلت الحرب العالمية الثانية كارثة هزّت العالم بأسره في منتصف القرن العشرين، ودارت رحاها بين أهم الدول الاستعمارية الأوروبية التي تضررت أكثر من غيرها مسجلة خسائر جسيمة، بشرية ومادية ⁽¹⁾، ممّا انعكس على الواجهة التي كانت تحظى بها تلك القوى التقليدية رغم انتصارها، حيث اهتزت مكورتاتها وترهلت أجهزتها، فكان لذلك تبعاته على كل المستويات، اقتصادية واجتماعية وسياسية.

وهي تداعيات سوف تقضي إلى انهيار التوازن القديم، ليتشكل نظام عالمي جديد يميّز بثنائية الأقطاب، قطب مثل "العالم الحر" ⁽²⁾، تتصدّره الولايات المتحدة الأمريكية وفقا لما أظهرته من حزم في الانتصار على قوات المحور، وقطب يمثل العالم الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي الذي اضطلع بدور أساسي في هزيمة المانيا النازية، فكان لهما إذن الثقل الكبير على

1) Serge Berstein, Pierre Milza, *Histoire du Vingtième siècle*, 1939/53. Tome 2 : *la guerre et la reconstruction*. Coll. HATIER, Paris 1989, 333 pages, pp.109-117.

2) Marcou (Lilly), *Le Kominform*. Presse de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, Paris, 1977, p.30.

آليات التفاوض لعقد السلم⁽³⁾، ولئن انتميا الى شق واحد خلال الحرب وأبديا قدرا من التعاون الاستراتيجي بحثا عن السلم، فإن ذلك سيتغير، بعد أن حطت الحرب أوزارها، إذ بدأ التناحر ينخر العلاقات بينهما، يغذيه الاختلاف الايديولوجي الذي يعكس بدوره اختلاف الرؤية في خصوص العلاقات الدولية وأصبحت كل جهة تعمل على خلق أكثر ما يمكن من مواطن تابعة لها، مما أدى الى ظاهرة التقاطب الثنائي الذي بات واضحا على المستوى الدولي. تجسّم ذلك في سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه أوروبا الشرقية⁽⁴⁾ ومحاولة احتوائها، وهو ما أطلق عليه رئيس الحكومة البريطانية تشرشل، عبارة "الستار الحديدي" لنعنت تلك السياسة في خطاب Fulton الذي ألقاه يوم 5 ماي 1946⁽⁵⁾، في إطار "الحرب الباردة".

ومن جهته، توسيعا وتركيزا للتكتل المناهض، أعلن الرئيس الأمريكي ترومان في خطاب ألقاه يوم 12 مارس 1947⁽⁶⁾، توجيه مساعدة حثيثة لتركيا واليونان بـ 150 مليون دولار و250 مليون دولار تباعا⁽⁷⁾.

تفرعت هذه المساعدة نحو البلدان الرأسمالية الأوروبية، تدعيما لاقتصادها المتدهور من جرّاء الحرب لتقديم "إعانة أخوية" وتجلّى ذلك في مشروع مارشال الذي رسمه كاتب الدولة الأمريكي الجنرال مارشال في خطاب ألقاه بجامعة هارفارد يوم 5 جوان 1947⁽⁸⁾.

تباينت المواقف واتسعت الهوة بين القطبين مما أدى الى بروز الأحلاف العسكرية⁽⁹⁾ : الحلف الأطلسي سنة 1949 بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وحلف فارصوفيا سنة 1955 بزعامة الاتحاد السوفياتي. هكذا شهدت العلاقات بينهما كثيرا من التعقيد والتشنج الذي تجسد في "الحرب الباردة"، مما أدى إلى تطويق برلين في ماي 1948 وانقسام ألمانيا في سنة 1949، وحرب توسعت رقعتها لتصل مناطق خارج أوروبا، منها الحرب الكورية (1950-1950).

3) Fontaine (André), *Histoire de la guerre froide*, T.I, de 1917-1950, Paris, 1965, p.311.

4) Marcou (L), *Le Kominform*, op. cit., p. 32

5) Fontaine (André), *Histoire... op. cit.*, p 315

6) Kremer (Ivanov), *Abrégé d'Histoire universelle*, éd. du Progrès, Moscou, 1975, chapitre XI, p.459.

7) Marcou (L), *Le Kominform*, op. cit., pp 30-32

(8) نفس المصدر.

(9) عبد الخالق (عبدالله)، *العالم المعاصر والصراعات الدولية*. عالم المعرفة (133)، الكويت 1989، ص 68.

(1953). في مطلع الخمسينات كثرت التكتلات وظهرت الأحلاف الإقليمية التي ترتبط بالمصالح الإستراتيجية منها حلف بغداد سنة 1955⁽¹⁰⁾.

إنه من الطبيعي إذن أن يكون لهذا الوضع المتوتر على مستوى العلاقات الدولية انعكاساته على باقي دول العالم وخاصة منها المستعمرات.

(2) على المستوى الشرقي :

كانت الحرب العالمية الثانية عاملا من عوامل اضطراب سياسة القوى الاستعمارية بمناطق نفوذها خاصة بالنسبة لفرنسا التي تعرّضت لإهانة احتلال ألمانيا لها⁽¹¹⁾، وقد رأى أهالي المستعمرات ذلك بعين الرضا إن لم نقل التشفي، تعبيرا عن الضغينة التي يكنونها للمحتل، مثلما حدث بتونس عند اقتحام القوات المحورية لها بين نوفمبر 1942 وماي 1943⁽¹²⁾، إذ حاولت نشر دعاية مضادة للاستعمار الفرنسي⁽¹³⁾ وشجّعت الأهالي على التمرد عليه، كما عمل الحلفاء من جهتهم على حث شعوب المستعمرات للالتفاف حولهم، واعدن إياها بغد أفضل.

بانتهاى الحرب ومباركة الولايات المتحدة الأمريكية للمبادئ التحريرية، وهو ما لا يتماشى وأفكار الهيمنة الاستعمارية الأوروبية، الى جانب الموقف السوفييتي المناهض ليدولوجيا لمبدأ الاستعمار انطلاقا من عدائه للامبريالية، تمّ تقريب المواقف بين القوى العظمى في إطار انبعاث هيئة "الأمم المتحدة" التي رفعت شعار "حق الشعوب في تقرير مصيرها بذاتها" وعملت على تحقيق ذلك في ميثاقها، وهو ما تمّ فعلا بحصول مستعمرات بلدان المحور على استقلالها.

ظروف عالمية ملائمة أذكت روح النضال لدى الشعوب المستعمرة ضد مستعمراتها⁽¹⁴⁾ الذين كانوا غير قادرين على القبول بالأمر الواقع، مشدودين الى الماضي القريب حيث لم يكن لهم فيه منازع، مثلما فعلت فرنسا،

(10) نفس المصدر، ص 73.

(11) Grimal (H), *La décolonisation*, A. Colin, Paris, 1965, pp.113-167.

(12) Kraïem (M), « C.G.T et syndicalisme après la prise de Tunis par les Alliés, 1943-44 » in *Revue Tunisienne des Sciences Sociales*, 1975, n° 40-41-42-43, pp.273-308.

(13) Hamza (H.R), « Le Néo-Destour des lendemains d'Avril 38 à la veille de l'indépendance : Hégémonie et institutionnalisation », in *La Tunisie de l'après-guerre (1945-1950)*, V ème Colloque international, Publications de l'Institut Supérieur du Mouvement National, Tunis 1991, p.215.

(14) YACONO (X), *Histoire de la colonisation française*, P.U.F., Paris 1969, pp.106-111.

- Viar (René), *La fin de l'empire colonial*, Paris 1963, 16 pages.

تحت غطاء جديد، لما طرحت صيغة "الاتحاد الفرنسي" كي تواجه بكل إصرار الحركات الوطنية في مستعمراتها (15). في حين أن الاستعمار الإنفليزي أبدى شيئا من المرونة في تعامله مع مستجدات الوضع واتباع سياسة الهيمنة دون الحضور الإداري المباشر (16)، مما جعل بعض المستعمرات البريطانية في آسيا ترتقي إلى الاستقلال، انطلاقا من النصف الثاني من أربعينات القرن العشرين، كالهند والباكستان.

(3) على المستوى المحلي :

أ - في مصر :

بتدافع الحركات الاستقلالية منذ نهاية الحرب والتي ستبلغ أوجها في الخمسينات، سوف يتأجج تيار التحرر الوطني في الساحة العربية التي لم تكن بمعزل عن تلك الأوضاع الملائمة لتنشيط القضايا، خاصة في مصر، وقد تجسّد ذلك التوجّه رسميا بتأسيس جامعة الدول العربية في مارس 1945، التي أخذت على عاتقها تنظيم الجهود الوطنية التحررية ورعايتها، مما نتج عنه إشعاع مصري بالنسبة لدول المنطقة أو حتى على مستوى أوسع، خاصة إثر انتماؤها إلى منظمة الأمم المتحدة، حيث أن حصول بعض المستعمرات الإنفليزية على استقلالها بعد الحرب مباشرة سيحفز الحسّ الوطني والقوى السياسية المتواجدة على الساحة، والحال أن مصر تربطها معاهدة ببريطانيا (1936) (17)، معاهدة تجعل من السيادة المصرية محدودة رغم استقلالها، وتوفر عديد الامتيازات للإنفليز خاصة السيطرة على قناة السويس.

إستراتيجية الموقع الجغرافي لمصر جعلت منها الحلقة الأساسية بالنسبة للمشرق العربي ونقطة التواصل بين الشرق والغرب ولم تكن القوى الاستعمارية قابلة للتفريط في هذا المجال الحيوي الذي يمثل المسلك النشط للملاحة العالمية وموردا من موارد النهب الاستعماري، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية.

15) Borella (François), *L'évolution politique de l'Union Française depuis 1946*, Librairie générale de Droit et de Jurisprudence, 1958, 499 pages, p.119.

(16) "الإرادة" 15 فيفري 1949

(17) السويح (علي)، "الوطنيون التونسيون ومصر 1952-1956". شهادة الدراسات المعمقة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1995-1996، ص 168.

بلغ اهتمام القوى العظمى أشدّه تجاه القناة، خاصة بعد اكتشاف حقول نفطية هائلة في منطقة الخليج، والحال أن النفط أصبح يمثل مصدر الطاقة الأساسي في الاقتصاد المعاصر ممّا زاد في التناحر والتنافس على النفوذ في تلك المنطقة (18).

إذا كانت مصر لا تملك مخزوناً من هذه الثروة، فإن موقعها المتميّز، إضافة إلى قناة السويس يكسبها أهمية بالغة نظراً لكونها تمثل ممراً لا يمكن الاستغناء عنه للوصول إلى تلك الثروة وبالتالي يجب احتواؤها والسيطرة عليها للإبقاء على حرية مرور النفط نحو البلدان الغربية، لذلك أحكمت بريطانيا رقابتها على المنطقة ونفطها (19)، وذلك ما يفسّر صرامة موقفها أمام مطالب الوطنيين المصريين لمراجعة معاهدة 1936، والجلاء عن قناة السويس. موقف حركّ القضية الوطنية المصرية وحفز الرأي العام، وقد حرصت القوى الغربية على نفوذها في المنطقة خاصة بعد اشتداد الحرب الباردة بين 1945-1956، بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية وسياستها الحازمة في المنطقة منذ 1945 (20)، فوقع التفكير في خلق كتلة مواجهة للتصدّي إلى الخطر السوفياتي ضمن مخطط للدفاع المشترك بين الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، فرنسا وتركيا، واقترح على مصر الانضمام له، إلا أنها التزمت بموقف الحياد (21)، مسنودة في ذلك بالدول العربية، الممثلة في الجامعة العربية، وهو موقف له دوافعه وأسبابه وينمّ عن أبعاد وتوجهات وطنية.

إلا أن الإمبراطوريات الاستعمارية ومنذ زمن بعيد، خطّطت لبقائها في المنطقة بزرع كيان غريب عنها خاصة بعد وعد بلفور سنة 1917 (22)، ثم انبعاث الكيان الصهيوني بعد نهاية الحرب الثانية (23)، واعتبرت مصر أن ذلك يمثل خطراً قد يستهدفها يوماً ما، إذ من نواياهم الاستيطانية، الانتصاب في

(18) أنظر جمال عبد الناصر : "الإمبراطورية العثمانية في مفترق الطرق"، دار المعارف، القاهرة 1955، ص 74.

(19) نفس المصدر.

(20) Gharbi (Lazhar), « Politique française de la France en Tunisie au lendemain de la 2ème guerre : contraintes mondiales et exigences nationalistes », in Actes du Vème colloque international sur la Tunisie de l'après-guerre, Tunis 1991, p.40-41.

(21) Maâtoug (Fredj), *La gauche française et la question palestinienne de 1948 à 1982*. Publications de la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 1998, 404 pages, p.141.

(22) Voir Eisenberg (Josy), *Une histoire du peuple juif*, Fayard, Paris 1974.

(23) Maâtoug (F), *La gauche... op.cit.*, p.116.

صحراء سيناء المصرية، وأصبح هذا الخطر في مقدمة المشاغل الوطنية، لذلك شاركت مصر في حرب 1948 التي خاضتها البلدان العربية ضد الكيان الصهيوني⁽²⁴⁾. لكن هزيمتهم جعلتهم يقفون على أهمية الوهن الذي نخرهم، كما وضّحت لهم الصورة بخصوص طبيعة الصراع، إذ أصبحت مساندة البلدان الغربية مطلقة للكيان الصهيوني، وتجسّمت في التصريح الصادر في ماي 1950 عن الثالث : بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا⁽²⁵⁾، الذي نصّ على تحقيق التوازن في التسلح بين إسرائيل والبلدان العربية المجاورة لها كي يتحقق الاستقرار بالمنطقة، إلا أن إسرائيل حظيت بتسهيل التسلح على حساب جيرانها.

هكذا أصبح الصراع العربي الصهيوني في مقدمة هموم القوى الوطنية يشدّ الرأي العام العربي الإسلامي وباتت القضية الفلسطينية قضية محورية من القضايا الوطنية التي أجّجت الشعور الوطني وعاملا من العوامل المؤثرة في الأوضاع الداخلية⁽²⁶⁾.

وهي أوضاع داخلية تميّزت بتدهور اقتصادي نتيجة ركود هياكل الإنتاج ووسائله التقليدية، فكان منعدم المبادرة ومحدود التعصير، يركز أساسا على الفلاحة التقليدية لضعف موارده وإمكاناته الطبيعية⁽²⁷⁾، إضافة إلى الهيمنة الاستعمارية واستغلالها الفاحش لموارد قناة السويس. ركود اقتصادي رافقه تدهور اجتماعي نظرا للتزايد الديمغرافي الهائل حيث فاق عدد سكان مصر 20 مليون ساكن في مطلع الخمسينات، تعاني الأغلبية منهم، وخاصة سكان الريف، من تردي مستوى المعيشة نظرا لسيطرة فئة ضئيلة من الحكام والأعيان والمتنفذين اقتصاديا وبعض التجار على الجهاز الاقتصادي⁽²⁸⁾، ممّا أدى إلى تحولات على مستوى القوى السياسية فتراجعت التقليدية منها كحزب الوفد، وتبلورت أخرى جديدة على الساحة السياسية، مثلتها أحزاب مختلفة منها

24) Maâtoug (F), *La gauche... op.cit.*, p.139.

25) Amin (Samir), *La nation arabe, nationalisme et luttes de classes*, les éditions de minuit, Paris 1976, 156p.

26) Maâtoug (F), *La gauche ... op.cit.*, pp.139-140.

27) أنظر : الهادي التيمومي، في أصول الحركة القومية العربية 1839-1920، دار محمد علي للنشر، 2002، 118 صفحة

28) Amin (Samir), *La Nation... op.cit.*

اليسارية الشيوعية أو اليمينية كحركة "مصر الفتاة" أو كذلك حركة "الإخوان المسلمين".

اشتداد التناقضات الاجتماعية نتج عنه اضطراب شعبي كبير تمثل في الإضرابات المتكررة مطالبة بالترفيه في الأجور واقترن ذلك بالاحتجاج السياسي وفوضى على مستوى الشارع المصري، خصوصا بعد الهزيمة، وتؤكد ضعف السلطة في تدبير معالجة القضايا التي تعقدت وتراكمت مما نجم عنه عدم الاستقرار السياسي بالبلاد، إلى جانب تعثر مفاوضات الجلاء أمام التعنت الإنكليزي والصراع الصهيوني.

كي يستقيم الوضع وقع الإعلان في أكتوبر 1951 عن إلغاء معاهدة 1936⁽²⁹⁾، مما استفز بريطانيا التي عبرت عن عدم رضاها عن ذلك، الأمر الذي جعل الأعمال التخريبية تستهدف المواقع الإنكليزية بالسويس في ديسمبر 1951⁽³⁰⁾. كما تظاهرت الجماهير بالقاهرة يوم 26 جانفي 1952، ولما وصل التوتر أشده انتصبت القوة العسكرية كي يستتب الأمن، إلا أنه بتوسّع نفوذ الجيش ستصبح عملية الانقلاب العسكري سهلة التنفيذ فعلا تم له ذلك في 23 جويلية 1952، لما أطاح بالملك ووقع الاستيلاء على السلطة، منزعج جديد ستعرفه مصر وسينعكس على باقي دول المنطقة.

هذه الوضعية التي تداخل فيها العالمي بالإقليمي والقومي، أعطت لفترة الخمسينات أهمية بالغة لا بالنسبة لتاريخ مصر فحسب بل لتاريخ المنطقة ككل وأثرت على عديد القضايا الدولية والمحلية⁽³¹⁾، لذلك ليس من قبيل الصدفة أن تجد أحداث الساحة المصرية صدى لها لدى الرأي العام في البلاد التونسية.

ب - الأوضاع المصرية وانعكاساتها على الساحة الوطنية التونسية :

لم تكن الصلة بين البلدين وليدة هذه الفترة بالذات ولكنها أقدم من ذلك بكثير إذ كان الترابط بينهما حاضرا في الفترات الحاسمة، ومنذ انبعاث التيار الإصلاحى خلال القرن التاسع عشر، كانت هناك تيارات متداخلة بين

(29) " الصباح " 15 أكتوبر 1951

(30) السويح (علي)، الوطنيون... مصدر سابق، ص 44.

(31) Maâtoug (F), *La gauche... op.cit.*, p.139.

البلدين⁽³²⁾ مؤثرة ومتأثرة، وكانت أدبيات هذا البلد تجد الصدى لدى البلد الآخر، وحلّ المصريون بتونس أمثال محمد عبده، كما مثلت مصر قبلة للتونسيين في الفترات الصعبة خاصة بعد انتصاب الحماية، أمثال العربي زروق والشيخ الخضر حسين وعبدالعزیز الثعالبي وبورقيبة وغيرهم...

أصبح هناك تفاعل بين أحداث البلدين منذ مطلع القرن العشرين لما توسعت النزعة الوطنية المعاصرة بسبب اهتمامها بقضايا التحديث والتقدم الأوروبي والمدنية والاستعمار، وسيتدعم ذلك بعد استقلال مصر سنة 1921 التي ستمثل موطناً قدم لرموز النشاط الوطني التونسي والمغاربي عموماً، حين يضيق بهم موطنهم.

ويتطور الأوضاع سوف يتأكد ذلك إذ يعتبر التونسيون المشرق العربي تواصلًا حضاريًا، بحكم اللغة والدين والثقافة وبالتالي انتماء إلى ذات الهوية العربية.

هذا مسار سيتوضح بتطور الظرفية التاريخية التي جعلت مصر تضطلع بدور ريادي، لما احتضنت مقرّ جامعة الدول العربية وأصبحت مصبّ القضايا العربية الإسلامية، مما سيكون سبباً في تواجد عناصر الحركات الوطنية المغاربية بها بحثاً عن تبليغ أصواتهم وتدارساً لأهيات القضايا آنذاك. قدم بورقيبة رئيس الحزب الدستوري الجديد إلى القاهرة في أبريل 1945 وعقبه آخرون من رفاقه أمثال الحبيب ثامر ورشيد إدريس، وأصبحت الرحلات باتجاه القاهرة حثيثة، وهو ما جعل العناصر التونسية تبعث بها مكاتباً في جولة 1946⁽³³⁾، وقد سبقه بعد وجود "جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا"، فكان رئيسها التونسي الشيخ محمد الخضر حسين إلى جانب وطنيين مغاربة⁽³⁴⁾، في جانفي 1948 انبعثت في القاهرة "لجنة تحرير المغرب العربي" التي ضمت تقريباً كل

(32) أنظر : عميرية (حفناوي)، الصحافة وتجديد الثقافة : تونس في القرن التاسع عشر. المعهد الوطني للتراث، الدار التونسية للنشر، 1994، 364 صفحة.

(33) أنظر : عبيد (خالد) " مكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947-1957 "، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1989.

(34) أنظر : الفاسي (علال) " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي " (القاهرة 1948) النقد الذاتي (الطبعة الثانية، تطوان)

الحركات الوطنية المغاربية وقد ترأسها عبدالكريم الخطابي إلى جانب الحبيب بورقيبة كسكرتير عام (35).

عبر الوطنيون التونسيون منذ الانطلاقة عن مساندتهم لمشروع تكوين منظمة تضم المجموعة العربية، مشاركة ومغاربة، وكانوا حريصين على التوقيع ضمنها من وجهة نظر مغاربية إذ أكد بورقيبة في سبتمبر 1945 أن العمل المشترك بين الدول العربية يساعد المنظمة على أن تلعب دورا لتحقيق استقلال بلدان شمال إفريقيا. ورغم عدم حصولهم على عضوية كاملة في الجامعة العربية تحت تأثير بريطانيا المنحازة لفرنسا في خصوص هذا الملف، وهو ما أسف له الوطنيون الموجودون بالقاهرة، فإن تنشيط قضيتهم في إطار القضية المغاربية مكنهم من إقحامها كمحور مركزي في اهتمامات المنظمة العربية التي نصّت وثائقها على ذلك (36).

ببني هذه المنظمة أصبحت مصر محلّ اهتمام كل القوى السياسية النشطة، وعمل الوطنيون التونسيون على استقطابها لفائدة قضيتهم، خاصة بعد تصلّب الاستعمار الفرنسي إثر نهاية الحرب العالمية الثانية إذ أصبحت القاهرة ملجأ لهم ومنطلقا للتعبير عن آرائهم التي ظهروا فيها أكثر ثباتا مطالبين بالاستقلال. وهو مطلب التفت حوله مختلف تيارات الحركة الوطنية. إلا أن الموقف المصري الرسمي صاحبه شيء من الفتور مرده المفاوضات الإنكليزية المصرية الجارية آنذاك بخصوص معاهدة 1936، ويهدف إلى عدم إستفزاز فرنسا لتحديددها. موقف برره المصريون بأنه ليس من المفيد إثارة جميع القضايا في ذات الحين لأنه سيؤدي إلى تحالف بريطانيا وفرنسا مما لا يخدم المصالح العربية.

نتيجة لتلك الحسابات السياسية لم تقدّم الجامعة العربية للدرس قضية شمال إفريقيا أمام هيئة الأمم المتحدة، إلا أن المساندة الشعبية لقضية المغاربة وتعاطف مختلف التيارات السياسية المصرية معها جعل الرأي العام يطوّع الموقف الرسمي المصري الذي أعيد تنشيطه من جديد. وقبل مجلس المنظمة

35) *L'Avenir de la Tunisie* : 21/21948, « Les pèlerins du Caire ».

20/3/1948, « Pas de place pour une troisième force arabe ».

(36) المادة الرابعة من ميثاق الجامعة العربية

في جلسته بتاريخ 1946/12/11 إرسال مذكرة إلى Quai d'Orsay تشعره فيها بأهمية تطبيق مبادئ ميثاق الأمم المتحدة في شمال إفريقيا⁽³⁷⁾.

وفي جانب آخر حرصت المنظمة على تشجيع بورقية، في رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية قصد تحسيس الرأي العام العالمي في الأمم المتحدة ودعت الوفود العربية فيها إلى مساندته في تلك المهمة⁽³⁸⁾.

لقد كان الرأي العام المصري متحمساً للقضية المغاربية ومساندا لها من خلال فضح الإعلام للمناورات السياسية وخصصت الصحافة المصرية أعمدتها للقضية المغاربية، وانتقدت السياسة الاستعمارية الفرنسية، كما تابعت أنشطة الوطنيين، ممّا جعل السفير الفرنسي بالقاهرة يكشف عن امتعاضه لذلك في مراسلة له إلى وزارة خارجيته ويعبّر عن اندهاشه بخصوص الحملات المتتالية في الصحافة المصرية ضد سياسة فرنسا في شمال إفريقيا⁽³⁹⁾.

كما وجد الوطنيون مساندة الأحزاب المصرية كحزب الوفد وحزب الوحدة العربية وحزب الاتحاد العربي إلى جانب الجمعيات ذات الطابع السياسي كحركة "الإخوان المسلمين"، وقد تجلّى أيضاً تضامن الحركة الفكرية والأدبية في تلك الفترة ومن أهم عناصرها أحمد أمين وتوفيق الحكيم وطه حسين⁽⁴⁰⁾.

عمّقت تلك المساندة، التي كانت في إطار شامل للقضية المغاربية، الروابط العربية الإسلامية ونشطت هذا التوجّه لدى صفوف الوطنيين المغاربة وتوجّ ذلك بانعقاد مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة الذي أكد الحضور الفعلي للوطنيين التونسيين، فكانت مشاركتهم بتسعة مؤتمرين من جملة 23، ينتمون في جملتهم إلى الحزب الدستوري الجديد⁽⁴¹⁾. كان الدكتور الحبيب ثامر - وهو من العناصر البارزة في الديوان السياسي للحزب - قد لعب دوراً هاماً في ذلك مؤكداً على العمل المشترك.

37) *Cahiers de l'Orient Contemporain*, 2ème Semestre, 1946, p.316.

38) *idem*, 1er semestre, 1947, p.49-50 et p.48

الزهرة : 1948/3/26

39) السويّح (علي)، *الوطنيون... مصدر سابق*، ص 22

40) نفس المصدر، ص 23 و 24

41) إدريس (رشيد)، " نكريات عن مكتب المغرب العربي بالقاهرة "، الدار العربية للكتاب، تونس 1981، ص 71 .

اعتزم "مكتب المغرب العربي بالقاهرة" (42) في هذا الإطار توثيق الروابط بينه وبين مختلف المنظمات العربية، وكذلك التأكيد على الصلات التي تربط بين المشرق والمغرب العربيين.

هكذا، أصبح الوطنيون التونسيون أكثر اهتماما بمقومات تلك الروابط وأبعادها ضمن قضيتهم الوطنية، وفق نظرة أعمق، اعتبارا للمعطيات التي جدت على الساحة السياسية وهو ما أصبح واضحا في إعلانات العناصر الوطنية التونسية بالقاهرة آنذاك حيث أكد بورقيبة في مارس 1947 إصرار المغاربة على اكتساب كرامة الحياة والحرية في محيطهم الطبيعي من الوطن العربي، وجسم ذلك بزيارة العديد من الأقطار العربية في المشرق العربي للتعريف بالقضية المغاربية وتحسيس حكوماتها بجدوى عرضها على هيئة الأمم المتحدة ومناشدتهم المساندة لنضالهم من أجل استقلال دول شمال إفريقيا (43).

إلا أن الحسابات السياسية والحزبية وحتى الشخصية منها سوف تعكر ذلك الانسجام، تحركها في ذلك الخلافات السابقة بين اللجنة التنفيذية والديوان السياسي، وكل جهة تريد الاستفادة من فعاليات الساحة المصرية ولصالحها، الى جانب المعطيات الجديدة والمتمثلة في ركود القضية التونسية وبأس الوطنيين والنقاعس الذي أبدته الجامعة العربية بخصوص تدويل القضية وعرضها على الأمم المتحدة، إلى جانب تناقص اهتمام الموقف الرسمي المصري من القضية المغاربية، فحاول رئيس اللجنة التنفيذية محي الدين القليبي، في هذا الجو المتوتر أن يجد له موقعا في صفوف الوطنيين بالقاهرة كما وقع تحميل بورقيبة مسؤولية سوء التصرف في شؤون مكتب المغرب العربي، ثم بعث مكتب الاستعلامات (44) للتعريف بوجهة نظرهم في القضية التونسية وأصبح التطاحن على أشده بين الدستور القديم والدستور الجديد.

تعمقت الآراء واختلفت الرؤى في صفوف الوطنيين التونسيين بالقاهرة في تلك الفترة بخصوص تصوّر القضية الوطنية وتحسّس إشكالياتها وضبط

42) Ch. R. AGERON, *Le Parti colonial face à la question tunisienne (1945-1951)*, in Actes du Vème Colloque international, *La Tunisie de l'Après-guerre (1945-1950)*. Pub. De l'I.S.H. du Mouvement National, Tunis 1991, p.195.

43) *idem*.

44) السويح (علي)، الوطنيون... مصدر سابق، ص 25

حدودها والمواقف من عديد المسائل المطروحة بما في ذلك العلاقة مع المشرق وحدود العمل السياسي ضمن وحدة المغرب العربي (45).

ومن جهة أخرى، تسرّب خلاف أعضاء المكتب ليخترق الصفّ التونسي بالهيئة المغربية وانقسموا إلى شقين : الأول بقيادة الحبيب ثامر، الذي آمن بكل قوة بأهمية العمل ضمن الوحدة المغاربية حتى لو كان ذلك على حساب المصالح الخاصة بكل قطر، والثاني برئاسة بورقيبة، الذي كان يرغب في التعامل، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات كل بلد بالنسبة للآخر. واتسع الخلاف وتعمّد إلى درجة انسحاب البعض من مكتب المغرب العربي (46) الذي تراجعت حيويته خاصة بعد موت الدكتور الحبيب ثامر.

تزامن ذلك مع فتور المساندة الشعبية في مصر للقضية المغاربية تبعاً لانشغال الرأي العام بالقضية الفلسطينية وحرب 1948 التي استرعت اهتمام كل الشعوب العربية. فصدرت بخصوصها مواقف المساندة عن كل الأطراف السياسية بمختلف اتجاهاتها ومنظماتها، وتجسّم ذلك في الحسّ الجماهيري الفياض الذي طغى على الاجتماع العام الذي التأم بجامع الزيتونة يوم 19 ماي 1948 وحضره الأمين العام صالح بن يوسف حيث عبّر عن خلال مراسلته لأمين عام الجامعة العربية عن مؤازرة التونسيين، رغم طغيان الاستعمار، للقضية الفلسطينية، مؤازرة تجاوزت مستوى الخطاب لتطبق على أرض الواقع من خلال أعداد الشبان المتطوعين للقتال. وقد شملت تلك الظاهرة كل الفئات التونسية وخصّت كل الجهات بالبلاد وبلغ عدد المتطوعين التونسيين للقتال 2676 متطوعاً (47).

ذلك ما أقلق السلط الاستعمارية، حسب تقرير J.Mons المقيم العام (48) الذي نبّه الى خطورة الوضع، ورغم الإجماع الذي قلّ ما حصل في شأن آخر فإنه لم يقطع الطريق أمام التنافس والصراع بين مختلف الجهات الذي تداخلت فيه الحسابات السياسية بتلقائية المواقف الشعبية، إذ من الطبيعي أن ينتاب ذلك

45) Ch. R. AGERON, *op.cit.*

46) عبّيد (خالد)، مكتب، مصدر سابق، ص 110

47) البكوش (سمير)، " صدى القضية الفلسطينية بتونس وصراع القوى السياسية حولها بين 1947-1948"، روافد، عدد 6، 2001 ص ص 31-60، ص 46.

48) أرشيف الإقامة العامة، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية R198، الملف عدد 1، ص 349 . تقرير جون مونس إلى جورج بيدو وزير الخارجية الفرنسي، جويلية 1948.

الحراك صفوف الشرائح الوطنية السياسية ونخبها التي كانت بصدد تصوّر قضيتها الوطنية، وتحسّس هويتها المعاصرة، أخذت في الاعتبار التطوّرات السياسية الجديدة، المحلية والدولية الناتجة عن حرب 1948 ممّا سيكون له تبعاته على القضية التونسية ومسيرتها في ما له صلة بمضامين أهدافها وطرق تعاملها مع القضايا الحسّاسة، وعلاقتها مع باقي الوطنيين، والمصريين خاصة في مطلع الخمسينات، إذ ستكون مقاومة المستعمر نشيطة بحكم التطوّرات على المستوى المحلي.

II - القضية التونسية في مطلع الخمسينات :

1) تدهور الأوضاع الداخلية :

اتسمت الظروف العامة بالبلاد التونسية في بداية الخمسينات بتأزم الحالة الاقتصادية واختناق الأوضاع الاجتماعية ⁽⁴⁹⁾ الناتج عن السياسة الاستعمارية الفرنسية المستنزفة لإمكانات البلاد ممّا سيؤوّل الى تعميق الهوة بين الحاكم والمحكوم.

اهتمت الصحافة بمختلف أوجه تلك الأزمة مشيرة الى خطورتها وتذمر الأهالي من سوء أحوالهم المعيشية وانتشار الفقر والبطالة وظهور المجاعة في بعض الجهات من البلاد خاصة تلك التي لم تتصفها الطبيعة ⁽⁵⁰⁾، وذلك بشهادة السلط الاستعمارية ذاتها، إذ يقول المقيم العام De Latour في خطابه الإذاعي يوم 19 مارس 1955 إنّ " ... مناطق الوسط والجنوب باقية على فقرها المنذر بالخطر من جراء كارثة الجفاف..." ⁽⁵¹⁾، ظروف متردية للغاية خيمت على البلاد وأنهكت الأهالي طيلة النصف الأول من عشرية الخمسينات، ستكون دون شك، عاملا من العوامل الملائمة للعمل السياسي وباعثا لتصعيد النشاط ودفعه نحو المزيد من التجذر، خاصة وأن الظروف الخارجية كما ذكرنا آنفا كانت سائحة لذلك.

49) *L'Avenir de la Tunisie*, 4/3/1950.

- *Le Petit Matin*, 8/4/1950.

50) قسنطيني (الكراي)، " أزمة ما بعد الحرب أم تأزم اجتماعي "، أعمال الندوة الدولية الخامسة، " البلاد التونسية في فترة ما بعد الحرب 1945-1950 "، تونس 1991، ص ص 76-96.
انظر أيضا :

J. LEPIDI, « L'économie Tunisienne en 1954 », in *BULLETIN économique et social de la Tunisie*, Avril 1955.

51) أرشيف المصلحة التاريخية لجيش البرّ الفرنسي، ملف H 219 2، ورقة 201.

2) منرج جانفي 1952 والمساندة المصرية للقضية التونسية :

لما تمّ الإعلان عن مذكرة 15 ديسمبر 1951 التي حكمت بتوثيق الصلة نهائيا بين تونس وفرنسا، فشلت تجربة التفاوض للحصول على الحكم الذاتي بين حكومة محمد شنيق والحكومة الفرنسية، والتي كانت وراء تشيئت موقف الوطنيين التونسيين إزاء قضيتهم، ويعكس ذلك بعض التباين في نظرتهم للقضية الوطنية وما تنطوي عليه من معان وأبعاد.

جانب من هذا الاختلاف يتعلق بأهمية وطبيعة الصلة التي تربط التونسيين بمصر والتي ما فتئت تتركز في تلك الفترة، وكان للأوضاع المصرية وما اتسمت به من إشعاع تأثير على العناصر الوطنية. وقد تطوّر هذا التأثير نظرا للحراك المتنامي في مطلع الخمسينات في كلا البلدين وعلى المستوى الدولي.

ساهم بعث جامعة الدول العربية في أن تكون "القاهرة قلب العالم الإسلامي النابض وقلبته السياسية حيث تجد الحركات الوطنية المضطهدة النجاة والسلامة" ⁽⁵²⁾، ممّا سيكون له انعكاس على نزعة العروبة لدى الحركات الوطنية عموما. وحاول الدستور الجديد تفعيل تلك النزعة في الوعي الوطني بالتأكيد على مقوماتها، وهو ما ذهب إليه علي البلهوان في حرصه على اللغة والدين والعادات ⁽⁵³⁾ التي تمثل روابط عريقة شاهدة على وحدة المغرب العربي والمجموعة العربية عموما، دون أن يكون ذلك منافيا لاستقلالية الكيان التونسي التي ينادي بها ⁽⁵⁴⁾. وقد حرصت مختلف التيارات الوطنية خلال هذه الفترة، خاصة العناصر المقيمة في مصر، على تركية الطرف المصري لطروحاتها كي تضمن نوعا من الشرعية. وهو ما يتجلى من خلال مواقف العناصر الوطنية التونسية التي قد تفقد تجانسها، رغم انتمائها لنفس الصف (الحزب الدستوري الجديد)، إذ أعتبر البعض منهم ⁽⁵⁵⁾ (حسين التريكي ويوسف

52) شارل أندري جوليان، " إفريقيا الشمالية تسير. القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية "، ترجمة المنجي سليم، الطيب المهيري، مراجعة فريد السوداني، الدار التونسية للنشر، تونس 1976، ص 203.

53) البلهوان (علي)، " نحن أمّة "، مطبعة التليبي، تونس 1949، ص 13.

54) نفس المصدر، ص 124.

55) أنظر موقف التريكي وجذور الخلاف في : " اليوسفية من خلال المصادر الشفوية "، لعبدان منصر، الكراسات التونسية، عدد خاص 169-170، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، الأشهر الثلاثة الثانية والثالثة 1995، ص ص 75-87 ص 78.

الرويسي)، خاصة الذين كانوا مرابطين في مصر، أن الخط التفاوضي مع فرنسا غير مقبول بحكم أنه يجعل قضايا المغرب العربي فاقدة لوحدها، إضافة إلى أن ذلك فيه إحراج كبير للموجودين على الساحة المصرية ويجعل تحركاتهم غير متناغمة مع موقف الديوان السياسي بتونس (بورقيبة...) الذي ينجح إلى التفاوض (56). إذ وقع توجيه الدعوة في مناسبات عديدة إلى فرنسا " كي تفتح سريعا المحادثات مع ممثلي الشعب التونسي " (57)، والتي إذا ما ضمنت السيادة التونسية سوف يقع احترام كل مصالحها المشروعة في تونس، في الميادين " الاقتصادية والثقافية والإستراتيجية ".

هذا الجروح إلى التفاوض، الممثل في حكومة شنيق (58) وقع رفضه من طرف شخصيات سياسية مختلفة منها التي تنتمي إلى الدستور القديم، والأسبوعية "الاستقلال" عبرت عن ذلك الخط منذ نشأتها في فيفري 1951، وأخرى تنتمي إلى الساحة الزيتونية (59)، إلى جانب عناصر الدستور الجديد (60)، خاصة بعد التأكد من أن ذلك المنحى لم يعط النتائج المرجوة وأنت مذكرة 1951/12/15 لتترجم فعلا عن خيبة المسعى.

وهكذا أصبحت الطريق مفتوحة للعودة إلى تشديد الموقف الذي سيؤهل القضية تدريجيا إلى التدويل. انطلقت بتحول محمد بدره وصالح بن يوسف إلى باريس يوم 1952/1/13 قصد رفع الشكوى إلى المنظمة الأممية (61)، وتم تأييد ذلك في دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة من طرف الأقطار العربية والآسيوية (62).

حصل ذلك في ظرفية غير ملائمة لفرنسا دوليا إذ باتت راضخة لهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية التي رغم مساندتها لها كانت توجه لها النقد بخصوص سياستها الاستعمارية (63)، إلى جانب ما تعرضت له من هدر لطاقتها نتيجة حرب الهند الصينية.

(56) السويح (علي)، الوطنيون... صدر سابق، ص 82.

(57) Mission, 12,26/5/1950 : افتتاحيات الهادي نويرة

(58) Mission, 11/8/1950.

(59) النهضة 23 و 27 أوت 1950 .

(60) أنظر ما صرح به يوسف الرويسي إلى : La République Algérienne 13/7/1951

(61) Mission 25/1/1952.

(62) Le Petit Matin 17,18 Janvier 1952.

(63) أنظر :

Les Mémoires de l'ex-secrétaire d'Etat américain D. Acheson, Present at the creation my years in the state department, New-York, Norton, 1969, p.327-328, 394-5, 579.

توقعاً لما سيحصل من مواجهة في خصوص مذكرة 15 ديسمبر بادرت الحكومة الفرنسية بتعويض مقيميها العام بتونس L.Périllier بمقيم عام جديد J. De Hauteclouque، عرف بقبضته الحديدية في تعامله مع الأوضاع، وحال نزوله بالبلاد يوم 13/1/1952⁽⁶⁴⁾ أعلن عزمه على ترتيب الوضع كي يستتب الأمن، باتخاذ سياسة قمعية، فضغط على الباي كي تسحب الشكوى التي وجهت الى مجلس الأمن لكنه لم يستجب له، فأمر بمضايقة الوطنيين الذين عقدوا مؤتمرهم الخارق للعادة يومي 18 و19 جانفي 1952، رغم منعه، وأقروا "عزم الشعب التونسي على تحقيق المبادئ الأممية بكل الطرق المتاحة له"⁽⁶⁵⁾. اعتقلت بعض العناصر القيادية منها الحبيب بورقيبة والمنجي سليم⁽⁶⁶⁾، وتواصلت الاعتقالات مما زاد الوضع توتراً حيث عمّت الاضطرابات وتكاثرت الاحتجاجات الشعبية والمظاهرات في شوارع العاصمة ثم خارجها⁽⁶⁷⁾ معبرة عن غضب الأهالي. إلا أن السلطة واجهت ذلك بكل وحشية وعنف "لتأديب الأهالي" ولم يتمكن المقيم العام، رغم إصراره، من حل حكومة شنيق، فقام بنفي أعضائها يوم 26 مارس 1952 إلى منطقة قبلي بالجنوب التونسي، ثم عين حكومة جديدة بإشراف صلاح الدين البكوش وأطلق العنان لكل القوانين الزجرية، وتمت ملاحقة الوطنيين وحشدهم تحت الإقامة الجبرية. كما نفذت عصابة "اليد الحمراء" بعض العمليات الإرهابية، منها اغتيال فرحات حشاد أمين عام الاتحاد التونسي للشغل يوم 15/12/1952⁽⁶⁸⁾، مما دفع التونسيين إلى ردّ الفعل وتصعيد المقاومة، فتكوّنت فرق الكفاح المسلح التي وجهت عملياتها ضد الحضور الفرنسي وأشكاله من مصالح المعمرين وغيرها⁽⁶⁹⁾، أطلق عليها الفرنسيون إسم "الفلاقة" إذ يتضمن اللفظ معنى أقرب إلى السلب والنهب منه الى المقاومة.

استمرت تظاهرات الشعب وتحذيه للمستعمر إلى حدود 1954، وفي المقابل تمادت سياسة التعسف والملاحقة ضد الأهالي خاصة الوطنيين، وأصبحت البلاد ترزح تحت وطأة الاستعمار الغاشم. أجواء مضطربة اخترق

64) *Le Petit Matin*, 17, 18 Janvier 1952.

65) *L'Avenir de la Tunisie* 21/1/1952.

66) *Le Petit Matin*, op.cit.

Le Petit Matin, 19-29/1/1952 : انظر (67

68) *Histoire du Mouvement National*, C.D.N, Tunis, 1968-79, Tome 13, *Le Néo-Destour face à la 3ème épreuve (1952-56)*, pp.521-578.

69) *idem*.

صداها حدود البلاد التونسية، خاصة باتجاه مصر التي كانت هي الأخرى تواجه ظرفية مماثلة، كما أشرنا سابقا إلى ذلك، أمّا المحرّك فهو واحد في كلا البلدين، ألا وهو القضية الوطنية.

أوضاع أدّت إلى انتقادات السلطات الأمريكية للسياسة الإنفليزية في مصر والفرنسية في تونس إذ اعتبر وزير الخارجية Dean Acheson أن تلك الأحداث كانت ناتجة عن إرادة التحرّر وهي ذاتها التي عرفت الثورة الأمريكية أو الفرنسية منذ قرون مضت (70).

من الطبيعي إذن أن تكون المساندة تلقائية بين البلدين نظرا لرضوخ كل منهما إلى ذات العاصفة، وقد كان ردّ الفعل المصري تجاه ما تعرّضت له تونس من قمع منذ بداية 1952، مختلف الأشكال، تنوعت مصادره بما في ذلك الرسمية أو غيرها، وتجسّم ذلك خاصة على المستوى الإعلامي، وكانت صحافة الأحزاب المصرية على موعدها منذ انطلاق الأحداث بالبلاد التونسية، وشاركت في الحملة الإعلامية وعلى اختلاف مشاربها وعبرّت عن استنكارها بشدة أمام السياسة القمعية بخطاب فيه كثير من الحماس والانحياز وصل أحيانا إلى درجة الشتم. وكانت هذه الصحف تغطي نشاط الوطنيين بانتظام، انطلاقا من علاقاتها بمكتب المغرب العربي بالقاهرة، كما تغطي الندوات الصحفية التي يعقدها الوطنيون بمصر (71) لعرض القضية التونسية، إلى جانب نشرها أخبار الوكالات الأجنبية حول هذا الشأن.

إن رحابة المجال الذي مثلته الصحافة المصرية للقضية التونسية، رغم الخطاب العاطفي، لعبت دورا كبيرا في تعبئة الرأي العام المصري والعربي، كي يتعاطف مع التونسيين ومقاومتهم، ويندّد بسياسة الاستعمار الفرنسي القمعية، وهو ما عبّرت عنه مختلف شرائح المجتمع المصري من أحزاب سياسية وهيئات ومنظمات، إن بواسطة الاجتماعات العامة أو اللوائح وبرقيات الاحتجاج (72) التي وجهوها إلى المنظمات العالمية، منها برقية إلى الجامعة العالمية للثقافات الحرة ببروكسال إثر اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد (73).

70) D.Acheson, *Present... op.cit.* pp 394-95

71) منها الندوة التي عقدها صالح بن يوسف ومحمد بدر يوم 1952/4/5. أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مراسلات سياسية وتجارية : ملف 317، ورقة 42.

72) تصريح السفارة الفرنسية بالقاهرة حول الأوضاع الداخلية لمصر من 1952/6/12 إلى 1952/12/12 : م.ت.ج.ب.ف.، ملف H2 136، ورقة 38.

73) *Le Monde du Travail Libre*, janvier 1953, p.10. Résolution du Comité Exécutif de la C.I.S.L. du 8 décembre 1952.

إلى جانب الأحزاب والصحافة، شكلت المنظمات مصدر تأييد للقضية التونسية، إذ اجتمعت تسع منظمات مصرية، من بينها اتحادية نقابة العمال وجمعية الشباب الإسلامي، وعبر الجامعيون المصريون عن مساندتهم في اجتماع التأم بالقاهرة يوم 17/12/1952، حيث تم الربط بين الوضع في تونس ومثله في مصر واعتبروا القمع الفرنسي والإنكليزي بإفريقيا من الحملات الإمبريالية وناشدوا الحكومة المصرية بغلق المؤسسات الفرنسية والإنكليزية والأمريكية⁽⁷⁴⁾، كما استنكر شيخ جامع الأزهر، وهو مفتي الديار المصرية، ما سلكته فرنسا في تونس ودعا المسلمين إلى إرسال المساعدات إلى إخوانهم التونسيين. وفي صلاة الجمعة ليوم 11 ديسمبر 1952، التي حضرها قرابة الـ 10 آلاف من شيوخ وطلبة، تمت دعوات المصلين إلى أحداث شمال إفريقيا وترحموا على روح الفقيد فرحات حشاد⁽⁷⁵⁾.

أما هيئة المحامين المصريين فإنها بعثت ببرقيات احتجاج على ما أطلقت عليه بالعدوان الفرنسي على القطر التونسي، إلى رئيس مجلس الأمن والأمين العام للمنظمة الأممية وإلى جمعية المحامين الأمميين⁽⁷⁶⁾، هذا إلى جانب تطوُّع بعض المحامين المصريين للدفاع عن التونسيين الذين تمَّ اعتقالهم خلال تلك الأحداث.

مثلت إذن المساندة الشعبية المصرية بمختلف توجهاتها وشرائعها تجاوبا، أكد الحسَّ التلقائي وتضامنا مع القضية التونسية بأحداثها وتطوُّراتها، عبّر عن الروابط المتينة التي تأسست بين الشعبين، انطلاقا من مخزون تاريخي ثقافي وحضاري مشترك. كان ذلك التفاعل بدوره سببا من أسباب حركية الساحة المصرية وتنشيطها، ولعلَّ ذلك سيكون محرّكا للموقف الرسمي الذي ستأخذه الجهات الرسمية تجاه القضية التونسية، مدفوعا من القاعدة الشعبية ومختلف مكوّنات الرأي العام المصري، وكذلك مدعوما من طبيعة الدور القيادي الذي أصبحت تتميز به مصر في قيادة الصف العربي، ضمن تحدّيات استعمارية خطيرة.

(74) السويّح (علي)، الوطنيون...، مصدر سابق، ص 96.

(75) نفس المصدر، ص 97.

(76) الصباح 23 فيفري 1952.

تجلى الموقف الرسمي عن طريق تصريح رئيس مجلس الوزراء نحاس باشا بقوله : " ... إنه لا يمكن أن تلبث مصر مكتوفة الأيدي تجاه تلك الحوادث أو تغض الطرف عن التصرفات المناهية للديمقراطية وللمبادئ دستور الأمم المتحدة والتي تقوم بها دولة من دول المنظمة الأممية في قطر تبسط عليه نظامها خصوصا وأن هذا القطر هو قطر عربي... " (77).

ثم تدعمت تلك المساندة الرسمية للقضية التونسية بعد أن تعكّرت الأوضاع في جانفي 1952، من خلال العمل الدبلوماسي على المستوى الدولي، مسألة واحتجاجا على فرنسا، وتسهلا لدور الوطنيين التونسيين الذين يسعون إلى عرض قضيتهم على الأمم المتحدة. وأصبحت مصر قاعدة لنشاط صالح بن يوسف ومحمد بدرة منذ أواخر مارس 1952، إذ تبنت، إلى جانب الباكستان، رأي المجموعة العربية والآسيوية لعرض القضية التونسية على الأمم المتحدة في ربيع 1952، حيث تمّ إيفاد أحد خبراء الحكومة المصرية القانونيين لمساعدة مندوب الباكستان عند عرضه للقضية على الأمم المتحدة (78). وفي 1952/12/7 تبنت بدورها الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية عريضة (45 صوتا على 58) القرار البرازيلي الذي يدعو إلى مواصلة المحادثات في خصوص القضية التونسية للوصول إلى منح التونسيين إمكانية إدارتهم الذاتية (79).

إلى جانب العمل الدبلوماسي، فضحت الصحف الرسمية - وكان لها إشعاع على مستوى الأقطار العربية - الممارسات الاستعمارية الإرهابية مما أخرج السلط الفرنسية التي احتجت لدى الحكومة المصرية معتبرة أن تلك التغطية الصحفية مغرضة وفيها الكثير من المبالغة. إضافة إلى الصحافة الرسمية، لعبت الإذاعة دورا هاما في التعريف بالقضية التونسية، خاصة وأن جهاز الراديو، نظرا لحدائته وسرعة نقل الخبر عنه، كان له وقع خاص لدى المستمعين في الأوساط الشعبية العريضة، إذ أصبحت المقاهي تعجّ بالوافدين طلبا للخبر الفوري الذي قد يكون مصدر نقاشات مطوّلة، ممّا يوضح الرؤى

(77) الصباح 6 مارس 1952.

(78) الصباح 4 مارس 1952.

(79) انظر :

Procès Verbaux officiels du Conseil de Sécurité, 575 ème séance, 10 Avril 1952, pp.11-14.

ويبلور الوعي لديهم بمستجدات الأحداث. والإذاعة المصرية من أوائل الإذاعات العربية التي تأسست ولها نسبة استماع واسعة في الصفوف الشعبية بالمغرب العربي منذ الأربعينات، وساعدت بقدر كبير في استرعاء الاهتمام بالشرق العربي وحث الوعي بالانتماء إلى صف عربي واحد.

لذلك كان صدى تلك الحملات الإعلامية الإذاعية واسعا وتأكد ذلك في ظل النظام الناصري القومي بعد ظهور إذاعة "صوت العرب" ⁽⁸⁰⁾، التي انطلق بثها يوم 4 أفريل 1953 ⁽⁸¹⁾، وقد كانت أداة تعبير عن مشاغل الوطن العربي وما تصبو له جماهيره من تحقيق للحرية والحياة الكريمة، ومثلت منبر نداء تم توظيفه للتعبئة والدعاية في سبيل قضاياهم أو لاتصال الرموز الوطنية بشعوبها، من ذلك مثلا كلمة علي البلهوان ومحمد بدره إلى الشعب التونسي بمناسبة حلول رمضان سنة 1954 ⁽⁸²⁾ التي كانت مشحونة بالحس الوطني، لذلك سعت السلطات الاستعمارية إلى الضغط على بث تلك الإذاعة بالتشويش المستمر، وهو ما أكدّه المقيم العام في تقريره حول الأحداث بالبلاد التونسية في شهر ديسمبر 1953 بقوله : " ... إن تصريحات بن يوسف إلى مصدح "صوت العرب" تبعثها اهتمامات كثيرة من المستعمرين التونسيين الذين لا ينحصر فقط في الوطنيين " ⁽⁸³⁾، ورغم احتجاج وكيل الدولة لدى وزارة الخارجية الفرنسية إلى المكلف بالشؤون المصرية بباريس ⁽⁸⁴⁾ حول الموضوع، فإن السلط الرسمية المصرية لم تكثر بذلك وأبقت على البث الإذاعي، مساندة للوطنيين بشمال إفريقيا ⁽⁸⁵⁾.

إلا أنه عموما بقيت تلك المساندة الرسمية أقلّ اندفاعا من المساندة غير الرسمية بحكم اضطراب الوضع الداخلي بمصر وانشغال الأوساط الرسمية بالمشاكل الداخلية، خاصة إثر انقلاب 1952/7/23، إذ انطلق النظام الجديد في تركيز هياكله وتنشيط سلطته محليا. وتواصل ذلك التقلص حتى سنة 1953

80) H.R.Hamza, *Communisme et nationalisme en Tunisie de la "Libération" à l'indépendance (1943-1956)*, Publications de la Faculté des Sciences et Sociales de Tunis, 1994, 391 pages, p.200

81) السويّح (علي)، الوطنيون... مصدر سابق، ص 93.

82) نفس المصدر، ص 92.

83) مأخوذة عن السويّح (علي)، مصدر سابق، ص 92.

84) الصباح 22 أوت 1954.

85) الصباح 19 ديسمبر 1954.

حيث لم تحصل اتصالات رسمية بين الحكومة المصرية ورموز الحركات الوطنية المغربية، ويتأكد ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها علي البلهوان إلى الباهي الأدغم بتاريخ 2 مارس 1952، حيث يشير إلى ضيق نطاق العمل بسبب الأزمة المصرية، لذلك توجه إلى بغداد بمعية محمد بدرة للتمكن من توسيع النشاط في الشرق الأوسط (86).

ومن المرجح أن يكون أيضا تراجع الموقف الرسمي من تبعات موقف الحزب الدستوري الجديد الذي جنح إلى التفاوض مع فرنسا، ضاربا عرض الحائط اتفاق مكتب المغرب العربي بالقاهرة، مما أدى إلى انكماش الحكومة المصرية التي لا ترغب في معالجة قضية شمال إفريقيا بطريقة تجزئية.

III - الموقف المصري في خضم تناقضات الصف الوطني

1) تطورات القضية التونسية ضمن الظرفية الفرنسية :

إن السياسة التعسفية التي توختها فرنسا بتونس عن طريق مقيميها العام J. de Hauteclouque كان مألها الفشل، رغم الإصلاحات الشكلية التي تم فرضها على الباي الذي رفضها (87)، وهو ما أقره رئيس الحكومة الفرنسية Vincent Auriol بقوله إن سياسة العنف في تونس قد تؤدي إلى المأزق. تجسم ذلك في سياسة الاستقالة خلال المشاركة في الانتخابات البلدية، إذ مثلت - رغم الضغوطات التي مارستها سلط الحماية - 33% من المرشحين على مستوى البلاد، 9% في تونس وسوسة، 18% في القيروان (88).

تغييرا لتلك السياسة وقع تعيين مقيم عام جديد Pierre Voizard في سبتمبر 1953، عقب ذلك انتخاب رئيس جديد لفرنسا في نهاية 1953، René Coty، الذي سيجاول لملمة الأوضاع وإعادة شيء من الهدوء (89) وفك الحصار الذي كان يخيّم على البلاد بتسريح الصحف الوطنية والوطنيين الذين تم إبعادهم، وانبعثت حكومة جديدة ترأسها محمد الصالح مزالي يوم 2 مارس 1954، التي ستدخل في إصلاحات جديدة (90)، ثم ستشهد السياسة الخارجية

86) Ladgham (Béhi), *Correspondance 1952-1954, les années décisives*, Cérès production, Tunis, 1990, p.46.

87) H.R. Hamza, *Communisme... op.cit.*, p.258.

88) *idem*, p.300.

89) أنظر مذكرات : M.S.Mzali. *Au fil de ma vie*, Tunis 1972

90) *Le Petit Matin*, 5/3/1954.

الفرنسية تطوّرات خطيرة على ضوء أحداث الساحة الداخلية والخارجية، وقد أشار Pierre Mendès France⁽⁹¹⁾ إلى " التحوّلات المثيرة " على مختلف الأصعدة التي تشهدها الساحة الدولية، واعتبر أن حرب الهند الصينية أصبحت تنهك طاقات فرنسا المادية والبشرية⁽⁹²⁾ وقد تسيء إلى صورتها وسمعتها، لذلك بات من الضروري إيقاف ذلك النزيف. كانت تونس أيضا في تلك الفترة إلى جانب الاضطرابات الداخلية والقضية المغربية من خضم المشاكل التي أثقلت كاهل فرنسا وارهقت ساستها. منذ حلول حكومة P.M.France⁽⁹³⁾ استبشرت بعض الأطراف بها، وأصبحت بوادر مراجعة تلك السياسة المتصلبة واردة مما سيكون له انعكاس في صفوف الحزب الجديد حيث سبّرت فيه عناصر تتحو إلى إعادة فتح الحوار مع فرنسا، من بينها الهادي نويرة⁽⁹⁴⁾ عضو الديوان السياسي الذي بات منذ 1952 يتمتع بحضور فاعل على مستوى القيادة وكان موقفه هذا وراء موجة من السخط انتابت البعض من العناصر الوطنية.

تعرّز هذا الموقف الداعي إلى العودة للتفاوض مع فرنسا بعوامل خارجية أيضا، منها ضعف نتائج تدويل القضية التونسية، إلى جانب عدم استعداد الولايات المتحدة الأمريكية للضغط على فرنسا⁽⁹⁵⁾ ومجاراتها، مما لا يدعم القضية التونسية.

علما وأن الوطنيين لم يفقدوا تماما الأمل في كسب مناصرة الولايات المتحدة الأمريكية لقضيتهم من خلال مبعوثهم إليها واتصالاتهم بها⁽⁹⁶⁾ (بوحافة والأدغم). لذلك وقع إقبال على توخي سياسة " التهذنة " من طرف قادة الديوان السياسي وأصبح هذا النهج يمثل تيّارا داخل الحزب، لكن ذلك سيمثل إشكالا على مستوى بعض العلاقات الخارجية خاصة في اتجاه مصر، التي

91) *Le Monde*, 18/6/1954.

92) من 1946 إلى 1954 التهمت حرب الهند الصينية 3000 مليار فرنك منها 2385 فرنك تحمّله الميزانية الفرنسية، أما الخسائر العسكرية فإنها تعدّ كما يلي : 92000 قتيل بما فيهم الذين لم تقع العثور عليهم، 114000 جريح . أنظر :

M.L.Chaïbi : *Les Enjeux d'une décolonisation négociée : L'exemple tunisien (1954-56)*, IBLA n° 186, 2000, 2, p.196.

93) *Le Petit Matin*, 17/6/1954.

94) *L'Express*, 3/7/1954, « Renouveau en Tunisie ».

95) تصريحات بن يوسف لجريدة : *Le Monde* بتاريخ 1953/10/28 و 1953/11/13 .

96) *Le Monde*, 26/4/1952, « Les émissaires nationalistes multiplient leurs démarches à New York et à Washington » .

شكلت فيما سبق دعما أساسيا للوطنيين التونسيين ولا يمكن التخلي عنه وقد كان حرص الحزب الدستوري الجديد واضحا في الإبقاء عليه لفائدة مواقف الديوان السياسي للفوز بزعامة الحركة الوطنية على حساب الأطراف الأخرى. أما النظام المصري الجديد، وبعد أن وطّد ركائزه على المستوى الداخلي، عاد من جديد إلى تنشيط القضية المغاربية وبدأ يظهر اهتماما وجديّة بالقضية التونسية، لكنه ضمن تمش في الاتجاه المعاكس، أي يخالف تماما ما أصبح يرومه البعض من قاداتها. في هذا الإطار ظهرت "لجنة تحرير المغرب العربي"، وهي مبادرة تمت تحت رعاية كل من الحكومة المصرية والجامعة العربية قصد تجاوز سلبات تلك الفترة والمتمثلة خاصة في الانقسامات وتشتت الأحزاب الوطنية.

تتكوّن هذه اللجنة من الأحزاب والمنظمات السياسية المغربية في مصر والشرق العربي، مقرّها القاهرة وينصّ ميثاقها في مادته الثالثة⁽⁹⁷⁾ على أن هدفها هو حصول أقطار المغرب العربي الثلاثة على استقلالها التام والانضمام إلى الجامعة العربية ودحض مبدأ المشاركة في الاتحاد الفرنسي⁽⁹⁸⁾ ورفض السيادة المزدوجة. وكان علي البلهوان من الممضين على ذلك الميثاق باسم الحزب الدستوري الجديد، ويبدو أن ضغوطات الوفد المصري، ووجهة نظره جعلت عناصر الحزب الجديد تتساق بشيء من الإحراج، خاصة لوجود ممثل عن الحزب القديم، إلى قبول التنسيق مع الأطراف الوطنية المغاربية، لذلك نرى ممثل الحزب الجديد يشترط بخصوص الوحدة التي تنص عليها اللجنة ألا يقع التدخل في الشؤون الخاصة بكل حزب⁽⁹⁹⁾. ورغم ذلك الاحتراز، فإن انخراط ممثلي الحزب الجديد ضمن تلك اللجنة لم يلق الاستحسان العام بل وقابله تحفظ البعض من قاداته منهم الباهي الأدغم.

واضح إذن أن عملية توحيد النشاط الوطني التونسي بالقاهرة ليست بالأمر الهين، والحال أن الخلافات القديمة والجديدة عادت للظهور في الأفق.

(97) السويح (علي)، مصدر سابق، ص 169.

(98) أنظر مداخلتنا :

HAMED-Touati (M), *La Tunisie entre les hésitations de la politique coloniale française et la résolution des nationalistes (fin des années quarante, début des années cinquante)*, pp.113-123, in *Actes du VI colloque international sur : La Tunisie de 1950-1951*, Publications de l'Institut Supérieur du Mouvement National, Tunis, 1993.

(99) رسالة علي البلهوان إلى الباهي الأدغم بتاريخ 20 أبريل 1954. أنظر الباهي الأدغم، مصدر سابق، ص 70.

يقول حسين التريكي : " ... أن الخلاف الكبير الذي تفجّر داخل الحزب والحركة الوطنية يعود إلى هذه الفترة (1947-1948) لكنه لن يجد فرصة للتعبير عن نفسه إلا في فترة لاحقة (1955-1956). وقد تمحور هذا الخلاف حول فلسفة قيادة الحزب، حيث تمكن الدكتور الحبيب ثامر عن طريق المكاسب السياسية التي حققناها في القاهرة... من دفع المكتب السياسي للحزب في مسار مختلف عن ذلك الذي حدّده بورقيبة..." (100)

تجسّد ذلك التضارب في المواقف بين متفاعل مع الساحة المصرية التي تتادي بالعمل الموحد لتحرير كامل المغرب العربي بواسطة الكفاح المسلح، ومتفائل بالتغيير الحاصل على مستوى الساحة الفرنسية ويأمل في إعادة الحوار مع فرنسا التي تنوي مراجعة تصلّب سياستها. تضارب نستشفه من خلال مراسلات رموز الحزب الجديد. إذ يقول المنجي سليم في رسالة إلى الباهي الأدغم بتاريخ 1954/4/9 : " لاحظت منذ زمن الفرق بين الداخل والخارج في المواقف السياسية التي يتخذها الحزب من حين لآخر، وربما كان لذلك الفرق تأثير في الأوساط الخارجية وخاصة العربية والإسلامية التي نعتمد عليها " (101). إلا أن عناصر الحزب الجديد سوف تظهر أمام تناقضات تلك الظرفية شيئا من المرونة، إذ تمكنوا من التعامل مع الموقف المصري الراديكالي وسأبروه ولم يتخلقوا في الانضمام إلى "لجنة تحرير المغرب العربي" في أفريل 1954، ولكنه كان مشروطا بعدم التدخل في الأمور الداخلية. فالموقف السياسي صلب الحركة الوطنية التونسية خلال تلك الفترة والسياسة الخارجية التي أصبحت تتحو منحى التقارب مع سياسة منداس فرانس، كانت وليدة الظروف السائدة آنذاك. كما أن هذا التيار نشأ داخل الحزب الجديد لأنه أقرب الأوساط السياسية للقيام بتلك المهمة نظرا للتمرس السياسي الذي تحظى به أغلب عناصر قيادته، إلى جانب تكوينهم السياسي والثقافي المطلع بحكم دراستهم العصرية التي أخذت عن الفكر السياسي الغربي الحديث في الجامعات الفرنسية، بحيث تكوّنت نخبة سياسية قادرة على فهم مجريات الأحداث وترتيب تعقيدها وتحليل مناوراتها السياسية والدبلوماسية، من بين هذه النخبة يبرز رئيس الحزب الحبيب بورقيبة الذي يتمتع بشخصية كاريزمية ورصيد معنوي وسياسي نظرا لطول نفسه النضالي وحنكته وخبرته الميدانية، ممّا جعله مؤثرا

(100) منصر (عدنان) اليوسفية،،، مصدر سابق، ص 78.

(101) Ladgham (B), *Correspondance... op.cit.*, p.18

على ميزان القوى داخل حزبه إلى جانب حبه للتفرد بالرأي⁽¹⁰²⁾. وقد كان لا ينفرد من الحوار مع فرنسا منتقدا المواقف الراديكالية، وعبر عن ذلك التمشي بالواقعية والبراغماتية، إذ صرّح لجريدة *Le Monde* الفرنسية منذ مطلع الخمسينات " أن الحزب الدستوري الجديد وطني وواقعي: فهو إذن الحزب الوحيد الذي يستطيع ضمان كافة المصالح الفرنسية"⁽¹⁰³⁾.

رغم فشل الحوار سنة 1952، فإنه سيعيد الكرة استجابة لبعض اللين الذي اتسم به الرأي العام الفرنسي في سنة 1954 والذي بدأ يؤمن بتسوية سلمية في خصوص المستعمرات، وهو ما تجلّى من خلال حكومة منداس فرانس الذي " عمل على توضيح تمشيه بقدر الإمكان لحلّ الأزمة التونسية، ومبادرته الأولى كانت بتحديد المتفاوض الوطني التونسي القادر على إعادة ربط الحوار الذي أجهض كمّ من مرّة "⁽¹⁰⁴⁾. وكان بورقيبة شاعرا بذلك التحسّس مما جعله يصرّح لجريدة *Le Monde* : "إنه من مصلحة فرنسا أن تقبل كمحاور لها حزبا ورجالا عصريين، لائكيين، كونتهم بنفسها ويعيشون... حسب ثقافتها وحسب المبادئ التي علّمتهم إياها..."⁽¹⁰⁵⁾

وفي سياق تهدئة الأوضاع وجنوح فرنسا للتسوية السلمية أعلن رئيس الحكومة الفرنسية عند زيارته لتونس، أمام الباي، باعتراف فرنسا لتونس بالحكم الذاتي، على مراحل، انطلاقا من مفاوضات تضبط وتضمن حقوق ومصالح كل الأطراف⁽¹⁰⁶⁾. تصريحات قبلتها قيادة الحزب الدستوري الجديد بارتياح، وتمّت موافقة الديوان السياسي يوم 4 أوت 1954 بالأغلبية على المشاركة في الحكومة التي انبثقت يوم 7 أوت 1954 برئاسة الطاهر بن عمار وانتمى لها أربعة من أعضاء الحزب الجديد، ثم وقع الإعلان يوم 8 أوت عن اعتزام فتح المفاوضات التي انطلقت في 4 سبتمبر وأدّت إلى إمضاء الاتفاقيات الفرنسية التونسية يوم 1955/4/21⁽¹⁰⁷⁾.

(102) منصر (عدنان) اليوسفية، ، مصدر سابق .

(103) *Le Monde*, 5 mars 1952.

(104) Chaïbi (M.L), *Les enjeux...*, op. cit. , p.197.

(105) Bourguiba (Habib), *La Tunisie et la France, Vingt cinq ans de lutte pour une coopération libre*, Paris, Julliard, 1954, 462 pages, p.446.

(106) *La Presse*, 1 juin 1954.

(107) في خصوص سير المفاوضات الفرنسية التونسية انظر :
Fouchet (Ch), *Mémoires d'Hier et d'Aujourd'hui*, Plon, 1971, pp.120-128.

هكذا إذن بات مطلب الاستقلال التام كحلّ أساسي وما أقرّه مؤتمر 18 جانفي 1952، من المسائل المؤهلة لإعادة النظر فيها. منعرج جديد للسياسة الوطنية التونسية سيكون محلّ أخذ وردّ وجدل وجدال، باركه البعض ورفضه البعض الآخر، سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي.

(2) التحفظ المصري أمام المنعرج الجديد :

تزامنت التطوّرات الأخيرة للقضية التونسية مع تحقيق الجلاء الإنكليزي التام عن قناة السويس، وأصبحت الحكومة المصرية تولّي عناية خاصة لما يحصل في شمال إفريقيا تربطه ببعده القومي والعربي، فناشدت فرنسا تغيير سياستها بهذه المنطقة كي تتجنب تلك المآسي من النوع الذي حصل في الهند الصينية.

إلا أن المنعرج الجديد الذي دخلته القضية التونسية سيثير احتراز الحكومة المصرية، ممّا جعل الرئيس عبد الناصر يطرح القضية التونسية في بعدها العربي والإسلامي خلال المؤتمر الإسلامي بمكة (108)، وأصبحت الأوساط السياسية بمصر تتحسّس بكل حذر التوجّه الطارئ الذي انخرط فيه الحزب الدستوري الجديد.

في هذا الإطار تمّت زيارة مدير جريدة "الأهرام" الرسمية إلى بورقيبة، في مقر إقامته الجبرية بفرنسا (109)، الذي صرّح بأن "موافقة فرنسا على استقلال تونس الداخلي يعدّ عملاً ثورياً وانقلاباً خطيراً في سياسة فرنسا تجاه تونس" (110). لكن ذلك لم يمنع ظهور الفجوة بين الموقفين خاصة عندما بدأت المفاوضات تتعقد بين الحكومة الفرنسية وحكومة الطاهر بن عمار ممّا سيدعم الخلاف بين الخط البورقيبي والخط الناصري، خلاف سيتعزّز بالمعارضة التي صارت واضحة داخل الحزب الدستوري الجديد ذاته، حيث أن الخيار التفاوضي مع فرنسا منذ البداية لم يحصل على إجماع وطني (111)، خاصة لما بدأت الضغوطات الفرنسية تمارس على الوطنيين لكسب أكثر ما يمكن من

(108) السويّح (علي)، الوطنيون... مصدر سابق، ص 111.

(109) الصباح 1954/8/22.

(110) الصباح 1954/8/24.

(111) أنظر الرسالة التي وجهها بشير زرق العيون إلى محمد المصمودي بتاريخ 1955/10/23.

Histoire du Mouvement National, Tome 14, pp.405-410.

التنازلات ومنها قبول تجريد المقاومة من السلاح⁽¹¹²⁾، وهو ما حدث في ديسمبر 1954 بعد النداء الذي وجهه رئيس الحزب بورقيبة لتسليم الأسلحة، وذلك رغم تحفظ بعض الأطراف الوطنية.

إلا أنه في جانب آخر اندلعت الثورة الجزائرية المسلحة في نفس السنة خلال شهر نوفمبر، ممّا سربك حكومة P.M.France التي ستتطلق في تكريس مناوراتها السياسية وسط جوّ سادته التعقيدات الظرفية، فكانت تبعاتها سلبية على سير المفاوضات⁽¹¹³⁾ حول مسائل ذات أهمية بالغة لها علاقة بالحكم الذاتي والإبقاء على الجنوب تحت السيطرة الفرنسية، وكذلك الأمن والقضاء ورقابة المجلس الاقتصادي المختلط على الشؤون المالية، إلى جانب اعتبار الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد، وكانت وجهات النظر متضاربة بين الأطراف الفرنسية والتونسية.

فإذا كانت عناصر الحزب الجديد تعتبر الحكم الذاتي مرحلة، لا غير، تؤدي إلى الاستقلال التام، فإنه غير ذلك بالنسبة لفرنسا إذ يعتبره P.M.France نهاية المطاف، وقد أكد على ذلك في التدخل الذي قام به أمام الجمعية الوطنية في 10 ديسمبر 1954 لمّا أعلن أنه يتبنّى مقولة René Mayer "حكم ذاتي نعم، استقلال لا"⁽¹¹⁴⁾.

أصبح بالتالي تباين الرؤى في خصوص المسألة التونسية مثيرا للجدل في الأوساط الرسمية الفرنسية واحتدّت الانتقادات تجاه حكومة P.M.France، ممّا عجل باستقالته يوم 5 فيفري 1955⁽¹¹⁵⁾ وعملت بذلك المفاوضات بين الطرفين.

وضعية سترزع الشك وتلقي بضبايبتها في صفوف الوطنيين التونسيين لتجعل تراكمات الخلافات السابقة حول تجربة التفاوض تطفو من جديد. في هذا الإطار يلقي تحفظ الحكومة المصرية على موقف رئيس الحزب الدستوري الجديد تجاوبا لدى معارضيه من رفاقه الذين كانوا ينشطون بالقاهرة. قاد تلك المعارضة الأمين العام للحزب الدستوري الجديد صالح بن يوسف الذي اصطدم

112) *Le Petit Matin*, 23/11/1954.

113) انظر : Fouchet (Ch), *Mémoires... op.cit* .

114) Chaïbi (M.L.), *Les enjeux...*, op.cit. , p.198.

115) *Le Petit Matin* 5 et 7 Février 1955.

منذ 1951 بفشل مسار تجربة التفاوض مع فرنسا حيث كان طرفا مباشرا في ذلك بحكم انتمائه الى حكومة محمد شنيق.

لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبار تلك المعارضة من صنع التأثير المصري ولكن دون شك، دعمها في اتجاه التصلب من خلال ما ضيقته حكومة جمال عبد الناصر منذ 1954⁽¹¹⁶⁾ ضمن قضية شمال إفريقيا والتحرير الكامل بالاعتماد على الكفاح المسلح ونبذ مبدأ التفرة بين دول المغرب.

وهو دعم تجلي بأشكال عدة : السياسي، مثل تكوين لجنة تحرير المغرب العربي وكذلك العسكري، لما وقع تدريب مجموعة من المناضلين بمعسكرات الحرس الوطني المصري، وذلك في بداية خريف 1954 قصد إعدادهم للمقاومة المسلحة، ويدخل في هذا الإطار سفر الطاهر لسود إلى مصر لجمع الأموال والأسلحة بهدف دعم معارضة الاتفاقيات التونسية الفرنسية، ثم قيادته للجنة تحرير شمال إفريقيا⁽¹¹⁷⁾.

وقد صرّح صالح بن يوسف منذ حلّ حكومة محمد شنيق ونزوله بالقاهرة خلال الندوة المنعقدة يوم 1952/4/5 بمقرّ الجامعة العربية أن التفاوض مع فرنسا لن يفضي إلى ما هو مأمول، وبقي على ذات الموقف لاحقا، في نوفمبر 1953 أمام قرار الأمم المتحدة بشأن القضية التونسية، معتبرا أن وحدة العرب هي القادرة فعلا على دحض الاستعمار عن الوطن العربي⁽¹¹⁸⁾.

تمثل هذه اللهجة تناغما مع الخطاب السائد آنذاك في الساحة المصرية، الذي يربط حرية الشعوب العربية بوحدتها، إلا أن الهادي نويرة اعتبر ذلك النوع من الخطاب موجّها إلى الرأي العام المتطرّف⁽¹¹⁹⁾، وقد استخف صالح بن يوسف، من جهته، بالتطوّر الحاصل على مستوى الرأي العام الفرنسي، وشكك في إمكانية تغيير السياسة الفرنسية تجاه بلدان المغرب، ومنذ البداية، كان بن يوسف من أوائل الرافضين لسياسة الجروح إلى التفاوض مع فرنسا منتقدا تصريحات بعض رموز الحزب الدستوري الجديد، ومن أبرزهم الهادي

(116) منصر (عدنان) اليوسفية،،،، مصدر سابق، ص 84.

(117) نفس المصدر، ص 83.

(118) م.ت.ج.ب.ف. ملف 1292 H، ورقة 889.

(119) أنظر افتتاحية الصباح 19 و20 جوان 1954.

نويرة، واعتبر أن المطالبة بالاستقلال الداخلي مرحلة تجاوزتها الأحداث ولا فائدة من التراجع⁽¹²⁰⁾، ثم وجّه نداء عبر إذاعة "صوت العرب" من القاهرة لمناشدة الوطنيين بالتخلي عن المشاركة في الحكومة الجديدة لأن ذلك سوف يسيء إلى القضية التونسية في الداخل والخارج⁽¹²¹⁾.

انتقادات واضحة وصريحة لبن يوسف، تشجّعه في ذلك التطوّرات الحاصلة على المستوى الإقليمي ومنها اندلاع الثورة الجزائرية وكذلك على مستوى أوسع، تركّز حركات التحرّر الآسيوية والإفريقية، والحال أن الاتفاقيات وقع التنديد بها من طرف عبدالكريم الخطابي والأحزاب الوطنية المغاربية وهو ما أدّى إلى فصل الحزب الجديد من لجنة تحرير المغرب⁽¹²²⁾.

لم ينحصر هذا الموقف في شخص صالح بن يوسف فحسب، بل بدأت المعارضة تتوسّع لتطال رفاهه خاصة الموجودين على الساحة المصرية التي كانت مناصرة لذلك التيار، وهو ما انبثق عن لقاء بن يوسف مع عبدالناصر يوم 7 سبتمبر 1954⁽¹²³⁾، الذي أكد له مؤازرة مصر للقضية التونسية وبرهن على اهتمام المصريين بالأوضاع في تونس، وستتصلّب المعارضة أكثر فأكثر بعد تعطل المفاوضات.

إن موقف صالح بن يوسف يوضّح تقاربا كبيرا بينه وبين وجهة نظر الرئيس المصري الذي يرى في استكمال السيادة، خلال تلك الفترة، خاصة بتحقيق الجلاء، أهمّ الأهداف التي يجب التركيز عليها، مشدّداً على الشخصية العربية التي تتميّز ببعدها الحضاري الضارب في عمق التاريخ، مؤكداً على أهمية القضاء على علاقات التبعية للغرب، لكنه في ذات الحين يرى بضرورة التعامل مع هذا الغرب اقتصاديا، مدركا ضعف هياكل بلاده الأساسية وتخلّفها.

إلا أن استئناف المفاوضات بعد تشكّل حكومة E.Faure في 5 فيفري 1955 سيؤدّي إلى إمضاء اتفاقيات الحكم الذاتي، ومن أهم ما نصت عليه إقرار

(120) أنظر :

Chabbi (B), *La crise yousséfiste et l'évolution du régime politique tunisien*, mémoire de D.E.S., Paris, 1958.

(121) عن تقرير السفارة الفرنسية في مصر إلى وزارة الخارجية في شهر فيفري 1954. م.ت.ج.ف.، ملف 1292 H، ورقة 904.

(122) الصباح، 17 أكتوبر 1955.

(123) الصباح، 8 سبتمبر 1954.

معاهدة باردو وحدود الحكم الذاتي، وبقي الدفاع والشؤون الخارجية من مشمولات فرنسا ولن يصبح الأمن تونسيا إلا تدريجيا بعد مرور عشرين سنة، كما أقرّت الوحدة الجمركية إلى جانب بقاء تونس تابعة إلى منطقة الفرنك الفرنسي، واللغة الفرنسية لغة رسمية ثانية (124).

من الواضح إذن أن هذه الاتفاقيات يكتنفها كثير من الغموض حول بعض الملفات، ممّا بعث على التساؤل حول مصير البلاد مستقبلا، لذلك وجدت معارضة شديدة منذ الانطلاقة من عديد الأطراف : من طرف اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري القديم (125)، إلى جانب الحزب الشيوعي التونسي (126) وحتى داخل الحزب الدستوري الجديد (127)، إذ انتقد أمينه العام تلك الاتفاقيات ضمن وفد شمال إفريقيا خلال مؤتمر باندونغ لدول عدم الانحياز، حيث وجد تضامنا كبيرا من طرف رموز المؤتمر (128).

وحال رجوعه إلى القاهرة، انطلق بن يوسف للدعاية ضد تلك الاتفاقيات التي انتقدها النقد اللاذع في إعلام بعث به إلى الجامعة العربية والحكومة المصرية وسفراء البلدان العربية بالقاهرة (129).

وكان لذلك انعكاساته على الرأي العام المصري الذي عبّر عن احترازه في خصوص تلك الاتفاقيات واهتمت الصحافة المصرية بالحدث وكتبت صحيفة "الأهرام" معلقة على مضمون الاتفاقيات غير المريحة.

جسّم الموقف المصري أهمية تيّار القومية العربية الذي كان طاغيا على شعارات الخطاب الرسمي لحكومة عبد الناصر، التي جعلت، من مرتكزات سياستها الخارجية، مساندة الحركات الوطنية العربية ضد الاستعمار وتدعيم سياسة عدم الانحياز على المستوى الدولي.

(124) انظر :

- Fouchet (Ch), *Mémoires... op. cit.*, pp.120-128.

- Ch. A. Julien, *Un épisode de la lutte pour l'indépendance tunisienne*, Les Temps Modernes, mars 1976.

(125) تصريحاته في جريدة الصباح، 4 و 7 أوت 1955.

(126) *L'Avenir*, 3, 17 juin 1955.

(127) تصريحات يوسف الرويسي في الصباح : 27 أفريل، 14 جوان 1955.

(128) السويّح (علي)، الوطنيون... مصدر سابق، ص 120.

(129) نفس المصدر.

هكذا أصبحت الحكومة المصرية تأخذ في اعتبارها معارضة بن يوسف إذ تحولت القاهرة إلى مركز معارضة لرئيس الديوان السياسي وأتباعه، وقد وجد مساندة من طرف علال الفاسي، زعيم الحركة الوطنية المغربية، الذي أعرب بدوره في حديث لمجلة "روز اليوسف" ⁽¹³⁰⁾ عن تنديده بتلك الاتفاقيات التي تجسّد، حسب رأيه، التبعية التامة لفرنسا، كما وقع توجيه طلب إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية يوم 19 جوان 1955 كي تتّم معارضة تلك الاتفاقيات التي تؤكّد دخول منعرج جديد وجب الاحتراز في شأنه.

أمّا فرنسا فقد كانت تتحسّس الخطر من وراء مثل هذه المواقف الساندة للمعارضة التونسية، علما وأن ذلك يهدّد مصالحها الاستراتيجية في كامل منطقة شمال إفريقيا، لذلك عملت على توفير الظروف الملائمة لدعم بورقيبة وخطّه، بدءا بعودته من المنفى يوم 1 جوان 1955 إلى أرض الوطن، وتنظيم استقبال شعبي هائل تم من خلاله تمرير قبول تلك الاتفاقيات في صفوف الجماهير بواسطة عقد الاجتماعات العديدة لاسيما وأن له قدرة خطابية نافذة، هذا إلى جانب مضامين الخطاب الذي يعتزم إرساء مجتمع حديث وبرامج تحديثية تواكب العصر، وهو ما مكنه من محاصرة الأصوات المعارضة في الداخل ونجح في كسب أغلب أعضاء الديوان السياسي وبالتالي باتت معارضة الاتفاقيات من الخارج دون جدوى، خاصة وأن غياب صالح بن يوسف عن أرض الوطن لمُدّة ثلاث سنوات أفقده، ولاشك، تأثيره الواسع على الحزب ⁽¹³¹⁾، ممّا جعل رجوعه إلى تونس أمرا ملحا لتعبئة المعارضة الشعبية من الداخل، وهو ما دعمته الحكومة المصرية بأشكال مختلفة، كما ذكرنا آنفا، سياسية وإعلامية وعسكرية، قصد إعادة فتح جبهة تونس لمقاومة فرنسا في شمال إفريقيا.

أما الرأي العام التونسي، فقد استعدّ لرجوع أمين عام الحزب الدستوري الجديد إلى الساحة السياسية التونسية، وتمّت اتصالات بعض الشخصيات الوطنية به، منها جلولي فارس، قصد إقناعه بالعودة إلى دائرة الحزب والتصال مع رئيس حزبه ⁽¹³²⁾.

(130) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مراسلات سياسية وتجارية، ملف 317، ورقة 36.
(131) H.R. HAMZA, *Communisme...* op.cit., p.272.

(132) الصباح، 18 أوت 1955.

فعلا، عاد بن يوسف إلى تونس يوم 9 سبتمبر 1955 حيث التأم استقبال شعبي مهمّ وكان الزعيم بورقيبة من ضمن الحاضرين ⁽¹³³⁾، إلا أن ذلك لم يمنع بن يوسف من إبداء نقده لتلك الاتفاقيات، ولاح التباعد بينهما منذ أول لقاء، وفي 7 أكتوبر 1955 ألقى بن يوسف خطابه الذي سيصبح مرجعا لفهم ما يتضمنه موقف الأمين العام للحزب، وكان ذلك في جامع الزيتونة حيث جدّد رفضه القاطع لما أقرّته الاتفاقيات ⁽¹³⁴⁾ مصرّحا أنه "... يجب على الشعب حتى لا يخون عقيدته الوطنية ولا يخذل إخوانه في الجزائر والمغرب... ألا يقرّ هذه الاتفاقيات وأن يعقد العزم من جديد على مواصلة الكفاح للتخلص نهائيا من نير الاستعمار " ⁽¹³⁵⁾.

لمّا اتضحت نوايا بن يوسف من خلال ذلك الخطاب قرّر بورقيبة رفته من الحزب يوم 8 أكتوبر 1955، وحدّد المؤتمر ليوم 15 نوفمبر 1955 ⁽¹³⁶⁾، فكان جواب بن يوسف أن حلّ الديوان السياسي، وهكذا أصبحت المواجهة بين الطرفين قائمة، وبات الخلاف واضحا بينهما، إذ كان كلّ منهما يسعى إلى الفوز بالشرعية من خلال الهيمنة على الحزب وقنواته التنظيمية، واخترق نيار الرفض صفوف الحزب الدستوري الجديد، ثم تجاوزت معها مختلف شرائح المجتمع التونسي، كما ساندت الصحافة، خاصة العربية، الزعيم صالح بن يوسف الذي استأنف عمله لتعبئة الرأي العام من خلال تحركاته خارج العاصمة ⁽¹³⁷⁾.

أصبح خطر الرفض المتنامي يتهدّد الحكومة التفاوضية وكذلك المصالح الفرنسية، ممّا جعل جهود الطرفين تتضافر لمواجهة ذلك الخطر المترصد. تكوّنت عندئذ فرق مسلّحة تعاضدها قوآت الأمن والجيش الفرنسي، مهمّتها تعطيل ومحاصرة النشاط اليوسفي ⁽¹³⁸⁾، إن بالتعنيف أو بالاعتداء على أنصاره، إلى جانب مضايقة الصحف الموالية للأمانة العامة ⁽¹³⁹⁾.

(133) الصباح، 10 سبتمبر 1955.

(134) الصباح، 8 أكتوبر 1955.

(135) الصباح، 8 أكتوبر 1955.

(136) الصباح، 9 أكتوبر 1955.

(137) الصباح، 1 نوفمبر 1955.

(138) الصباح، 28 أكتوبر 1955.

(139) *L'Avenir de la Tunisie*, 23 décembre 1955.

وفي ناحية أخرى، سيعمل الديوان السياسي على ترتيب البيت في مؤتمره بصفاقس يوم 15 نوفمبر 1955⁽¹⁴⁰⁾. ورغم جهود الوفد المصري وعلى رأسه حسن الباقوري وزير الأوقاف⁽¹⁴¹⁾ لمحاصرة الخلاف، فإن الشرخ بات قائما في أركان الحزب الدستوري الجديد.

لكن ومن مفارقات تلك الوضعية، ظهور طابع جديد اتسم به الخطاب داخل المؤتمر ينم عن تحول واضح، إيديولوجيا وسياسيا، يهدف إلى سحب البساط من المعارضة، ولعلّه تحت ضغطها أيضا، بتبني البعض من محاور خطابها وما تدعو له، إذ نلاحظ أن سمة الإسلام والعروبة تطبع المؤتمر من خلال ما أكده رئيس الحزب بقوله : "... أن الشعب التونسي عربي... وسيبقى عربيا مسلما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد كافح هذا الشعب... للمحافظة على عروبة هذه الديار وإسلاميتها..."⁽¹⁴²⁾. كما نادى المؤتمر بضرورة تجاوز الاتفاقيات والتعجيل بالاستقلال التام⁽¹⁴³⁾. وهكذا وقع الإقرار ضمنيا بشرعية المعارضة اليوسفية للاتفاقيات لكن وفي ذات الحين تم طرد بن يوسف من الحزب، ثم سيقع القضاء على الحركة اليوسفية وإبعادها عن الساحة الوطنية بشتى الطرق ومنها حملات الإيقاف والتعنيف والترهيب وصولا إلى التصفية الجسدية⁽¹⁴⁴⁾.

أمّا أنصار الأمانة العامة فإنهم سينخرطون من جهتهم في تيّار العنف المتبادل والمواجهة بنفس السلاح، خاصة لما يتعلق الأمر بمصالح المستعمر. فكان للظاهر لسود دور في ذلك وفي مواصلة الكفاح المسلح تحت إسم "جيش التحرير التونسي" الذي دعمه نسبيا ماديا ومعنويا، النظام المصري. وهكذا سيطر على البلاد جوّ اكتنفه كثير من العنف وهاجس الحرب الأهلية، ممّا جعل زعيم المعارضة صالح بن يوسف يلجأ مرة أخرى إلى مغادرة البلاد متجها نحو مصر.

كان للقوة دور مهم كي تفضي المواجهة إلى فوز الحكومة والديوان السياسي، بحكم الدعم الذي توفر من طرف السلطة الاستعمارية التي وضعت

140) H.R.HAMZA, *Communisme... op. cit.*, p.125.

141) السويح (علي)، الوطنيون... مصدر سابق، ص 126.

142) أنظر خطاب بورقية في اختتام مؤتمر صفاقس : *Le Petit Matin* 19/11/1955

143) H.R.HAMZA, *Communisme...op..cit.*, p.275.

144) *L'Avenir de la Tunisie*, 4 décembre 1956.

إمكاناتها الأمنية والعسكرية لخدمة ذلك. وقد أعلن المندوب السامي الفرنسي في ندوة صحفية يوم 8 ديسمبر 1955 بأنه وقع ترفيع عدد الصباحية من 500 إلى 1500 كما تم إنشاء قوة تونسية للأمن المتجول بالعاصمة، إلى جانب وضع 250 عنصرا من أعوان المخزن بالجنوب على ذمة الحكومة التونسية (145).

إلا أن ممارسات العنف لم تكن هي الخيار الوحيد في إستراتيجية حسم تلك الوضعية، بل كان للعمل السياسي حضوره، والحال أن الحكومة الفرنسية أصبحت شاعرة بخطورة المعارضة التي قد تذهب إلى الارتباط والتعامل مع المقاومة الجزائرية والمغربية للتمكن من القضاء على الاستعمار بشمال إفريقيا، كما أنها كانت واعية أيضا بأن ما ينشط تلك الحركة الرفضية هو مضمون الاتفاقيات، لذلك سيقع العمل، بطلب من P.M.France على إعادة النظر في خصوصها (146)، والحال أن بورقية كان من جهته متيقظا لاستغلال المعارضة اليوسفية كورقة ضغط على فرنسا وفعلًا تم له ذلك، إذ وقع تعديل تلك الاتفاقيات في صيغة بروتوكول 20 مارس 1956 الذي ارتقت البلاد بحكمه إلى الاستقلال التام، وانتفت بذلك المرتكزات السياسية التي كانت تعتمد عليها الحركة اليوسفية، وتمكن الحبيب بورقية، رئيس الحزب، من الصدارة مجددا باستعادة المكانة المتميزة والمرموقة لدى الأوساط الاجتماعية والرأي العام الداخلي، مما سيفسح له المجال لبناء الدولة المستقلة.

الخاتمة :

شهدت الساحة المصرية والساحة التونسية أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات، تبعا لحركة القوى العالمية والإقليمية وتوتر الأوضاع المحلية، تفاعلات مختلفة إن بالتأثر أو بالتأثير بين الطرفين، تمثلت في التقارب والتجانس أحيانا أو في التباين والاختلاف أحيانا أخرى، تفاعلات طبعت تصوّرات الوطنيين وتوجهاتهم المتعلقة بالهوية الوطنية والعمل الوطني.

فإحجام مضامين وثوابت الهوية التونسية ومنها الصلة الرابطة بين تونس والمجموعة العربية الإسلامية ضمن المعركة السياسية، جعل المعارضة الداخلية - خلال مرحلة من مراحل التحرر الوطني - تلتف بذلك الحجم حول

(145) السويح (علي)، الوطنيون... مصدر سابق، ص 127.

(146) الصباح 25 نوفمبر 1955.

الرفض اليوسفي الذي لم يقف عند تعبئة الرأي العام على مستوى الداخل، ولكن ضمن أيضا مؤازرة الحركات التحررية له في العالم العربي والإسلامي.

إنه من الطبيعي أن يلقي الخطاب القومي الناصري أثره في الصراع الذي هزّ صفوف النخبة الوطنية التونسية لما لذلك من أهمية على قضية الهوية الوطنية التونسية في تلك الفترة المصيرية، وكذلك باعتبار أسبقية مصر في تجربة التحرر الوطني وتوق الوطنيين التونسيين إلى الخلاص النهائي من كابوس الاستعمار. ولكن في جانب آخر يجب أن نضع في الصورة، السياسة المصرية المنتهجة والتي كانت تحكمها قواعدها، ولها دوافعها الخاصة، إذ تهدف إلى التأكيد على أهمية دور مصر في المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط، عربيا ودوليا، خاصة وأنها أصبحت تخشى المخططات الأمريكية في الوطن العربي بعد أن عبّرت مصر عن رفضها لذلك بانخراطها في سياسة عدم الانحياز. كما أنها من ناحية أخرى أرادت أن تضغط على فرنسا التي لا تمانع في تسليح إسرائيل في حين أنها ترفض ذلك لمصر.

ومن هنا يمكن القول بأن الموقف المصري من القضية التونسية ارتبط أيضا ببعض الاعتبارات الخاصة بمصر والتي لها صلة بشؤون مصر الخارجية، لكن هذا لا يقلل في شيء من أهمية المساندة المصرية للقضية التونسية. إذ ما من شك أن لذلك دورا في مواجهة الاستعمار ومقاومته مما أعطى دفعا لمزيد تحسّس طرق الانعتاق والارتقاء بمضامين الوعي الوطني ومقومات الهوية الوطنية المعاصرة نظرا لوحدة السياق التاريخي حيث تجلّى الترابط الوثيق بين الطرفين في مواجهة القضايا المصرية.